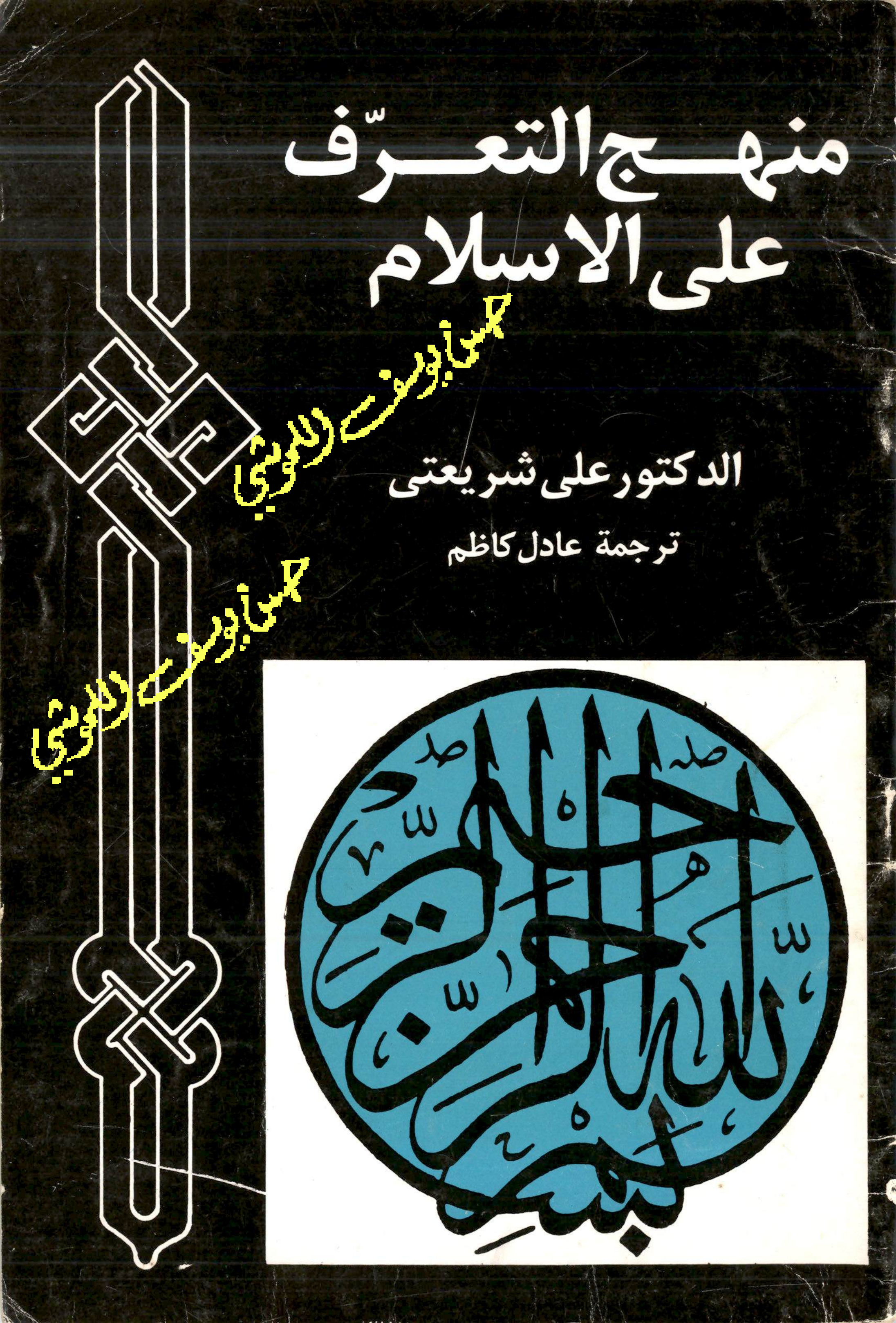

منهج التعرّف
على الاسلام
الدكتور علي شريعتي
ترجمة عادل كاظم
بسم الله الرحمن الرحيم

حسن أبو يوسف الكويتي

# منهج التعرّف على الاسلام

الدكتور علي شريعتي

ترجمة عادل كاظم



١٤٠٠ هـ. ق/١٩٨٠ م.

دارسُروش للطّباعة والنشر

و هذا الكتاب الذى بين يديك ايها القارىء العزيز هو عبارة عن محاضرتين القاهما الدكتور تحت عنوان: «منهج التعرف على الاسلام» فى اكتوبر ١٩٧٠ م.

و نحن ايمانا منا بضرورة نشر الاسلام الثورى و عرضه على جميع المسلمين و المثقفين المناضلين فى عالمنا العربى الاسلامى قمنا بترجمة ما تيسر لنامن دراسات المعلم الشهيد (الدكتور على شريعتى) لنكون قد ساهمنا بجزء ضئيل فى اغناء الفكر الثورى و انتشار رسالة الاسلام التغييريه، و توعية الشعوب الاسلامية بدينها و تراثها الحضارى الاصيل، و رسالتها الانسانية و الله الموفق و المؤيد.

المترجم

---

سلسلة الفكر الثورى الاسلامى (٢)

دارسروش للطباعة والنشر
طهران، الجمهورية الاسلامية الايرانية
الكتاب: منهج التعرف على الاسلام
المؤلف: الدكتور على شريعتى
المترجم: عادل كاظم
الطبعة الاولى، سنة ١٤٠٠ هـ . / ١٩٨٠ م.
تمّ تنضيد الحروف باللاينوترون فى دارسروش للنشر
و طبعت من الكتاب ١٠٠٠٠ نسخة على مطابع فروغ دانش.

# المحاضرة الاولى

حديثى حول مناهج البحث المختلفه التى بواسطتها يمكـن معـرفة الاسـلام و مناهج البحث عبارة عن اصطلاح علمى يعنى:
طريقة و اسلوب معرفة الاسلام.

مسالة المنهج فـى التاريخ ـ و خصـوصا تاريخ العلم ـ له اهمية قصـوى، فـان اسلوب المعرفة الصحيحة لكشف الحقـائق له اهمية اعظم من الفلسـفة و العلم و الموهبة.

نحن نعلم أن اوربا فى القرون الوسطى كانت غارقة فى ظـلام الجمود و الركود مدة الف سـنة، و بعـدها تحـولت فجأة من مرحلة الركود و الجمود الى حـركة اصلاحية شاملة فى العلم و الفن و الادب و القضايا الانسـانية و الحياة الاجتماعية، وبعـدئذ كانت هذه الحركة الاصلاحية و النهضـة الفكـرية بالذات منطلقـا لايجـاد المدنية و الثقافة الحديثة فى العصر الحاضر.

فى هذه الحالة يجب أن نسـال أنفسـنا: لماذا توقفـت أوربا ألف سـنة، و كيف تمكنت فجأة من أن تغير اتجاهها و فـى مدة قـرنين أو ثلاثة تمكنت أن تكتشـف الحقائق التى لم تصل اليها طيلة الف عام! هذا سؤال خطير وهام وربما يكون اهم و اعقد سؤال ينبغى ان يجيب عليه العلم.

لاشك ان هناك عوامل متعدده سببت هذا الركود و التوقف فى أوربا فى القـرون الوسطى، كما أن هناك أسبابا مختلفة ايقـظت أوربا فجـاة و وضـعتها على طـريق النهضة و الرقى و التقدم السريع المدهش.

و فى هذا المجال يجب أن أشير الى ان العامل الاساسى فى تخلّف الفكر الاوربى و المدنية و الثقافة فى أوربا فى السنوات الالف من القرون الوسطى، كان هو المنهج الارسطى المعتمد على القياس. و عندما تغيرت هذه النظرة الى الاشياء و القضايا، تغير معها العلم و العالم و المجتمع، و تغيرت معها الحياة الانسانية. فالحديث هنا اذن عن الثقافة، والفكر و النهضة العلمية، و لذلك فان تغيير المنهج و الاسلوب كان هو السبب الرئيسى لهذه النهضة الحديثة. ولو كان يبدو بحسب الظاهر ان السبب المباشر لهذا التغيير هو تبديل نظام الاقطاع بالنظام البرجوازى و كان ذلك بتاثير من انفتاح الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى فى ايام الحروب الصليبية.

اذن: فالمنهج له تاثير كبير فى ايجاد التقدم او الانحطاط، و المنهج العلمى المتبع هو الذى يسبب الركود و التخلف أو يفجّر الحركة و التقدم و ليس النبوغ العلمى، فمثلا فى القرن الرابع و الخامس قبل الميلاد نبغ فى الفلسفة و العلوم عمالقة لم يكن يلحق بهم نوابغ القرن الثالث و الرابع و الخامس عشر الميلادى. فلاريب ان ارسطو كان أعظم نبوغا من فرانسيس بيكون، و أفلاطون كان أنبغ من روجر بيكون. لكن لماذا أصبح هؤلاء الافراد الذين هم أقلّ درجة فى النبوغ من أرسطو و أفلاطون أصبحوا روّاد النهضة العلمية، بينما كان اولئك النوابغ أنفسهم سببا لركود القرون الوسطى و توقف الف سنة فيها؟ لماذا يصبح نابغة علمية فى العالم سببا للتخلّف و الركود، و يصبح رجل متوسط النبوغ سببا للتقدّم العلمى و النهضة الاجتماعية؟

و الجواب هو أنّ الثانى وجد المنهج الصحيح للتفكير و فى هذا الطريق يتمكن حتى المتوسط فى العلم أن يصل الى الحقيقه، بينما النابغة العظيم اذا جهل المنهج القويم للتفكير فانّه لايتمكن أن يستفيد شيئا من نبوغه.

لهذا فانّك تجد فى تاريخ الحضارة اليونانية فى القرنين الرابع و الخامس قبل الميلاد حشداً من عشرات النوابغ العظام فى أثينا الذين أثّروا فى التاريخ البشرى الى يومنا هذا، لكنهم لم يتمكنوا ان يخترعوا آلة واحدة. بينما نجد فى أوربا اليوم رجلا صناعيا متوسط الدرجة بحيث لايستوعب كلمات ارسطو و تلامذته و قد اكتشف مئات من الاختراعات. و أحسن مثال على ذلك هو اديسون، حيث لايعد

من الدرجة الثالثة من تلامذة ارسطو، ولكنه عمليا هو من احسن تلك النبوغات التي كانت تحيط بارسطو و تتلمذت على مدرسته طيلة الفين و اربعمائة سنة، و اكثرهم كشفا للطبيعة و اسهاما في توليد الصناعة الحديثة، و قد اخترع اكثر من الف اختراع صغير و كبير.

فالتفكيز الصحيح مثل السير في الطريق تماما.

فالرجل الاعرج الذي يمشي ببطء اذا سار على طريق مبلّط و مستقيم يكون اسرع من ذلك العدّاء البطل الذي يختار طريقا و عرا منحرفاً مليئا بالصخور، و يصل الى الهدف أسرع من الثاني، و هذا البطل العدّاء مهما ركض سريعا فلا يصل إلى الهدف، بينما يصل لى الهدف ذلك الرجل الاعرج الذي اختار طريقا مستقيما و مبلطاً.

إنّ مسالة اختيار المنهج الصحيح لكل الاختصاصات العلمية سواء الادبية او الاجتماعية، او الفنية و السيكولوجية.. او غيرها .. هي أول مسئلة يجب أن تطرح و تناقش. و على هذا الاساس فان أول مهمة للباحث هو انتخاب افضل منهج من مناهج البحث العلمية. و يجب علينا ان نستفيد من هذه التجربه التاريخية الكبيرة، و باعتبارنا من اتباع دين عظيم فعلينا أن ندرك مسؤ ليتنا و نعي و اجبنا فالاسلام الذي هو ديننا يجب ان نعرفه بشكل صحيح و بطريقة منهجية.

و اننا اليوم لانتمكّن ان نقدس شيئا لانعرفه او نتعبد بعقيدة لانعرفها، و بالخصوص تلك الطبقات المثقفة فان مسؤوليتها في معرفة مقدساتها أعظم، وهذه ليست واجبا اسلاميا فقط بل هو واجب علمي و انساني ايضا. فقيمة كل انسان بمقدار معرفته و فهمه لمعتقداته لان الاعتقاد وحده ليس فخرا، و اذا كنا نعتقد بشيء لانعرفة جيدا فلا قيمة في ذلك بل القيمة تكمن في المعرفة و الفهم الدقيق لما نعتقده. ولاننا نعتقد بالاسلام فلابدّ ان نعرفه جيدا و لمعرفة الاسلام بشكل صحيح، لابدّ أن نختار المنهج الصحيح.

## المنهج الصحيح لمعرفة الاسلام

و الان هنا سؤال يطرح نفسه: ماهو المنهج الصحيح لمعرفة الاسلام؟

فلمعرفة الحقائق الاسلامية ليس علينا أن ناخذ مثلا منهجا من المناهج

الاوربية مثل المنهج الطبيعى او المنهج السيكولوجى، او المنهج الاجتماعى، و نقلد تلك المناهج و انما علينا ان نختار منهجا جديدا نبتكره، و طبعا فان المناهج العلمية لاوربا يجب ان نعرفها، ولكن لايجب حتما ان نقلدها. فاليوم كل المناهج العلمية فى كل المجالات التخصصية قد تغيرت، وحلت مكانها نظرة جديدة، فالتحقيقات الدينية ايضا يجب ان تسلك طريقة جديدة و تتبع منهجا حديثا.

من البديهى أنه لاتوجد لمعرفة الاسلام طريقة واحدة فقط لان الاسلام ليس دينا ذا بعد واحد فليس الاسلام مثلا دينا مبتنيا على العرفان و الاحاسيس الروحية فقط او قائما على علاقة الانسان بربه فحسب؛ بل ان هذا جانب واحد من جوانب الاسلام الواسعة. و لمعرفة هذا الجانب من الاسلام يجب ان نعتمد المنهج الفلسفى، لان قضية العلاقة بين الانسان وربه اى مسالة الايمان بالغيب و بما وراء الطبيعة - تطرح فى باب الفلسفه اى فى باب التفكير الحرّ فى ماوراء العلم.

و الجانب الثانى من جوانب الدين الاسلامى، هو جانب الحياة الانسانية و طريقة المعيشة على الارض و لمعرفة هذا الجانب يجب اعتماد المناهج المطروحة فى العلوم الانسانية.

و من ناحية ثالثة فان الاسلام هو دين الحضارة و التمدن، وهو صانع المجتمعات المتحضرة. ولمعرفة هذا البعد الحضارى من الاسلام يجب ان نراجع المناهج المعتمدة فى الدراسات الاجتماعية و التاريخية.

اذن لو نظرنا الى الاسلام من زاوية واحدة، فاننا نظرنا الى وجه واحد فقط من وجوه هذا الموشور المتعدد الوجوه ولو استوعبنا هذا البعد الواحد جيدا فانه لايكفى لمعرفة الاسلام كاملا.

والقران الكريم نفسه خير مثال على ذلك:

هذا الكتاب يحتوى على جوانب متعددة بحيث انّ العلماء الكبار لم يحيطوا على طول التاريخ إلاّ بيعض تلك الجوانب، و اكتشفوا بعض أبعاده فقط. فجانب من جوانب القرآن هو البعد البلاغى للقرآن، وهو يشتمل على المسائل اللغوية و الادبية و البيانية، و قد اشبع الادباء و علماء النحو و البلاغة و البيان و البديع ذلك بحثا و دراسة. و البعد الاخر للقران هو البعد الفلسفى و يشتمل على المسائل الفلسفية و البحوث العقائدية التى يجب على المتكلمين و علماء الحكمة و الفلسفة

اليوم ان يعملوا الفكرفيها. و البعد الثالث للقران ـ و هذا البعـد لازال مجهـولا ـ و هو البعد الانسانى للقـران اى البعـد الاجتماعى و التاريخـى و السـيكولوجى و يشتمل على مسائل ترتبط بعلم الاجتماع و علم التاريخ و علم النفس . و بقـى هذا البعد مجهولاً لان هذه العلوم الانسانية و هى علوم‌التاريخ و الاجتماع و النفس هى جديدة و اكثر جدّة من‌العلوم الطبيعية. فالتاريخ أوعلم التاريخ هو احـدث علم وجـد اليوم و هو يختلف طبعـا عن‌المواد التاريخية و كتب‌التاريخ التى هى من أقـدم الكتب التى دونت فى كل مجتمع من المجتمعات.

ان المسائل التاريخية المتعلقة: بالشعوب السابقة و بمصير الامم و احـوالها و علاقاتها الحضارية ثم اسباب سـقوطها و انهيار الحضـارات السـابقة متوفـرة و مطروحة فى‌القران بشكل بارز خصوصا فى‌السور الطوال و على كل متخصص فى علم التاريخ أن ينظر فى ذلك بنظرة علمية. كما يجب على عالم الاجتماع أن يبحث فى ذلك بمنهج علم الاجتماع. و امّا المسائل الكونية و الطبيعية التى تندرج تحـت علوم الطبيعة و الكائنات الطبيعية فيجب ان تبحث بالمنهج الطبيعى.

وانا باعتبار ان دراسـتى و تخصصـى فـى علم التاريخ و الاجتماع، فـانى أعطى لنفسى الحق فى طرح نظراتى الخاصة بهذا الموضوع، و بيان ما توصلت اليه فـى هذا المجال.

انى اعرض هنا منهجين للدراسة و هما ينطلقان من زاوية واحدة، و هى الزاوية الاجتماعية و التاريخية التى هى من العلوم الانسانية.

ولكى يتضح كلامى جيدا، فانى اشبه الدين بالانسان. فلو أردنا ان نتعـرف على شخصية كبيرة فهناك طريقتان لذلك، و بواسطة هاتين الطريقتين معا نحصل على النتيجة المنشودة.

اولا: ان نبحث فى آثاره الفكرية و العلمية و الادبية، و ندرس نظرياته و كلماته و مقالاته و كتبه و نحقق فيها و ذلك أن التعـرف على عقلية الانسـان و افكـاره و معتقداته مقدمة ضرورية لمعرفة ذلك الانسان.

ثانياً: لايكفى هذا الامر وحده لمعرفة الشخصية معرفة كاملة لان هناك قضايا و أموراً توجد فى حياة الانسان و لاتظهر فى آثاره أو أقواله، او تظهر ولكن لاتعـرف جيدا. اذن فهناك طـريقة ثانية لتعـرّفنا بتلك الشـخصية جيدا و هى دراسـة حياته

الشخصية: من أيّة عائلة او أسرة هو؟ و اين ولد؟ من اية منطقة او قومية؟ كيف قضى طفولته؟ كيف تربى و ترعرع؟ و فى اية بيئة عاش و نمى، و اين قد درس و تعلم؟ من هم اساتذته؟ ماهى الاحداث التى و اجهته فى حياته، ماهى الانتصارات و الهزائم التى منى بها؟ و...؟

اذن فالخلاصة انّ هناك طريقتين أساسيتين لمعرفة اية شخصية، لابد من الاعتماد عليهما حتماً:

الاولى هى التحقيق فى تفكيره و ثقافته.

الثانية: هى استعراض حياته و احواله الشخصية من البداية حتى النهاية.

و هكذا فالدين مثل الشخص ـ ايضا فان هناك طريقتين لمعرفة الدين.

الاولى: طريقة الآثار و الافكار.. و الكتاب الموجود فىالدين و الذى يدعو الناس اليه يمثل الاثار و الافكار، لان الكتاب الدينى ـ هو الدين مكتوبا بالكلمات..

و اما الطريقة الثانية فهى استعراض تاريخالدين و مسيرته منذ نشاته.. فهو يمثل (بيوغرافية) الدين.

اذن من اجل ان ندرس الاسلام بشكل صحيح و دقيق و نعرفه بنظرة عصرية توجد طريقتان رئيسيتان:

الطريقةّ الاولى: دراسة القران و هو عبارة عنالمبادىء و الاثار الفكرية و العلمية للاسلام.

الثانية: استعراض المسيرة التاريخية للاسلام و تتبع التطورات التى حدثت فيه منذ بداية البعثة المحمدية الى اليوم و ماحدث بينهما.

هذا منهج.. و لكننا نلاحظ مع الأسف فى دراساتنا الاسلامية بأن الاهتمام بدراسة القران و دراسة التاريخ الاسلامى قليل جدا و التحقيق فيهما ضئيل وياتى فىالهامش تقريبا. و مع ذلك فمن حسنالحظ أنه يوما بعد يوم يتوجه المسلمون الى معرفة القران فى نصّه و دراسة التاريخ الاسلامى دراسة تحليلية و ذلك بسبب اليقظة الفكرية التى بدأت تنتشر فى المجتمعات الاسلامية. يقول الكاتب فرحت عباس فى كتابه «ليل الاستعمار»: «لقد بدأت اليقظة الاجتماعية فى دول شمال افريقيا يعنى المغرب و الجزائر و تونس منذ ذلك اليوم الذى جاء فيه الشيخ محمد

عبده الى شمال افريقيا و بدأ يفسر القرآن للناس.. الامر الذى لم يكن معروفا فى المعاهد العلمية الدينية الى ذلك اليوم».

نحن نجد ان هذا الكاتب ـ و ان لم يكن فى اتّجاهه الفكرى ملتزما بالخطّ الاسلامى ـ الا أنه يعتقد بأنّ بداية اليقظة و التغيير فى بلاد شمال افريقيا منذ الوقت الذى اعتبر فيه المسلمون و علماء الاسلام العودة الى متن القران و التحقيق فيه أصلاً و تركوا التحقيقات الدينية المختلفة فى الهوامش و الحواشى.

فعلى هذا الاساس فان دراسة القران باعتباره المتن الكامل للفكر الاسلامى و معرفة التاريخ الاسلامى باعتباره السجل الكامل لاحداث الاسلام فى مراحله المختلفة هما تؤدّيان الى معرفة الاسلام بشكل علمى و دقيق.

## رسالة المسجد

لو أنّ المسلمين اليوم حوّلوا المسجد الى مراكز فعّالة للبحث و التحقيق، و اعتمدوا على هذين الاصلين الاصيلين: القران و التاريخ، فى اعداد برنامج التوعية الجماهيرية لأمكنهم ذلك من بناء القاعدة الأساسية لأكبر نهضة اسلامية وفكرية.

و هناك منهج آخر لمعرفه الاسلام. هذا المنهج هو: العلم عن طريق تصنيف القضايا و المقارنه بينها، و هوما يعرف فى علم الاجتماع (التيبلوجى). و فى سبيل معرفه الاسلام تمكنت أنا أن أستفيد من هذا المنهج الذى يستخدم عادة فى اوربا للتحقيق فى بعض العلوم الانسانيه، و استخرجت منهجا يمكن الاعتماد عليه فى معرفه أىّ دين و المنهج عبارة عن معرفه الجوانب الخمسه التالية من كل دين و مقارنتها بالجوانب المقابله لها فى الاديان الأخرى وهى:

١ـ الإله أو الالهة فى كل دين[1] يعنى ذلك الرمز الذى وضع للعباده عند اتباع هذا الدين.

٢ـ نبى كل دين، يعنى الشخص الذى يبلغ رسالة الدين الى الناس.

٣ـ كتاب كل دين، يعنى المنهاج التشريعى الذى ياتى به هذا الدين و يامر اتباعه بالعمل به.

٤ـ كيف ظهر نبى كل دين و من هم الذين خاطبهم فى دعوته، لأن كلّ نبىّ

---

١) ليس الحديث هنا حول صحة أوفساد هذه الأديان، فمن أجل معرفة الدين الصحيح لابدّ من مقارنته بالأديان الأخرى.

یاتی و یعرض نبوته باسلوب و یخاطب المجتمع بشکل معین، فواحد کان یخاطب عامةّالناس، و آخر کان یخاطبالاشـراف و الامراء و ثالث کان یخـاطب العلماء و الفلاسفة و الطبقة الخاصة.

فاننا نلاحظ بان نبیاً ما تارةً فی ظهوره یحاول التقـرب الی القـوی الحـاکمه، و نبی آخر یظهر لمواجهة القوی الموجودة و یثور علیها.

فاننا نلاحظ بان قسما ممناطلق علیهـم اسـم الانبیاء و کانوا اصـحاب ادیان ـ کانوا یحاولون عند مجیئهم التقرب الی القوی الحاکمةّ فیالمجتمع. و نجد قسـما آخر و هم الانبیاء الصـــادقون کانوا عندما یظهـــرون یبدأون بمواجهــة القــوی المتحکمة و یعلنون الثورةّ علی المتسلطین و الجبابره.

٥ـ تلامذة و حـواریو کل دین، یعنی النماذج و الوجـوه التی تجسـد الدین و تخرجت من مدرسته الفکریةً و الروحیةً، و الرجال الذین ربّاهم هذا الدین و قدمهم للمجتمع. فـانّنا عندما نرید ان نعـرف جیدا هذا المصــنع او تلك الارض الزراعیة فعلینا ان ناخذ عینات منالبضائع التی انتجها هذا المصـنع او نماذج من محـاصیل تلك الارض الزراعیه. و هکذا لو اردنا ان نعرف دیناما بشکل جید فعلینا ان نطالع و ننظر فیالافراد الذین صـنعهم هذا الدین و الرجـال الذین تخـرجوا من مدرســته الفکریه و التربویه.. فهــؤلاء یعــدون النماذج التی انتجهـــا الدین هذا المصـــنع الانسانی.

اذن.

فعلی ضوء هذا المنهج ولاجل معرفة الاسلام بشکل جید تجـب اسـتخدام هذه المراحل الخمسة:

ـ فی البدء تجب معرفة الله. وهناك طرق مختلفة لمعرفة الله، مثل التوجـه الی الکـائنات الطبیعیة و التفکیر فیهـا، او المناهج الفلســفیه و الطرق الاشــراقیة و العرفانیة، او طریقة التجربة و الاستدلال العلمی.. و التحلیل الریاضی اما المنهـج الذی اعرضه انا ـ لمعرفة الله ـ فهو منهج المقایسة و الاستنتاج بهذا الشکـل و هو اننا نستقصی الصفات و الاسماء و النعـوت الخـاصة الواردة فـی الاسـلام عنالله عزوجل، مثلا: هل هو قهـار؟ رحیم، فـوق کل شـیء، هل صـفة الرحمانیة غالبة علیالقهاریة امالعکس؟ و الخلاصة ماهی مجموع صفاته، و ای إله هو؟ و لمعـرفة

هذه الصفات و الخصوصيات يجب مراجعة القرآن و السنة النبوية و احاديث الصفوة من تلاميذ النبى لان هذه الصفات قدوردت فى القرآن و احاديث النبى و تلاميذه بشكل واضح. ثم نقارن بين صفاتالله فىالاسلام و صفاته فى المذاهب الدينية الاخرى مثل. اهورامزدا.. يهوه.. زئوس.. بعل..

المرحلة الثانية لمعرفة الاسلام ـ هى معرفة كتاب هذا الدين الذى هو القرآن.

و بالنسبة الى القرآن فيجب ان نعرف انه اى نوع من انواع الكتب هو، و ماهى المسائل التى يبحث عنها؟ و اكثر تركيزه على اى جانب من الجوانب؟ يتحدث عنالدنيا اكثر ام عن الآخرة؟ و يتطرق الى المسائل الفردية و الاخلاقية آكثر ام عن المسائل الاجتماعية، يتوجه الى القضايا المادية آكثر أم الى القضايا المعنوية؟ يتكىء على الطبيعة ام علىالانسان؟ و بخلاصة ماهى المفاهيم التى يطرحها و كيف يطرحها؟ مثلا فى اثبات وجود الله هل يامرنا: بان نذهب و نزكى انفسنا حتى نتمكن من معرف الله؟ ام اننا بالمطالعة و البحث فى اجزاء الطبيعة و الآفاق و الانفس يجب ان نصل الى معرفة الله؟ أم نتبع هذين الطريقين معا؟ و علينا ان نقارنه مع سائرالكتب الدينية مثل: التوراة و الانجيل العهدين القديم والجديد، و كتاب بودا.. و اوستا.

المرحلة الثالثة لمعرفة الاسلام ـ هى أن نعرفالرسول الاعظم محمد بن عبدالله (ص) باعتباره نبى هذا الدين. فمعرفة النبى لها اهمية كبيرة بالنسبة الى اى مؤرخ، لان الدور الذى كان يملكه نبيالاسلام فىالتاريخ البشرى، لم يكن لأحد مثل هذا الدور. فدور النبى محمد فى الاحداث التى وقعت فى حياته كان عظيما جدا و فعالا. و عندما نتحدث عن شخصية نبيالاسلام فانا ننظر الى الجوانب الانسانية العادية فى حياته، كما ننظر الى ابعاده المعنوية و قدراته المستمدة من ماوراءالطبيعة، يعنى ندرسه من بعده البشرى و بعده النبوى الذى كان يملكه... مثلا فى سبيل معرفة ابعاده الانسانية علينا ان نلاحظ عدة امور: اسلوب حديثه، و طريقة عمله، و تفكيره، موارد تبسمه وضحكه، قعوده و قيامه، و جلوسه و نومه، ثم ندرس علاقاته معالاخرين، معالعدو، و معالاهل و الاصدقاء، و نقرأ انتصاراته و هزائمه، و نبحث فى معالجته للقضايا الاجتماعية. و هذه الطريقة يمكن ان تعتبر من أهم و افضل الطرق لمعرفة حقيقة و روحالاسلام الواقعية اى معرفة نبى

الاسلام و مقارنته بانبياء كموسى و عيسى و مؤسسى الاديان التاريخية مثل: زرادشت و بوذا.

المرحلة الرابعة ـ لمعرفةالاسلام ـ هى البحث فى كيفية ظهور نبىالاسلام؟ هل كان ظهوره فجاة و بلا مقدمات او ارهاصات؟ ام ان العالم كان بانتظار ظهوره؟ و هل كان هو بنفسه عارفا لبعثته من قبل أوكان يعرف ماهى البعثة؟ أم انه فجأة احس بانقلاب داخلى مفاجىء داخل روحه و تحول غير عادى فى شخصيته و فى طريقة تفكيره و اسلوب حديثه. ثم عندما بعث و واجه مجتمعه بذلك، كيف بدأ المواجهة و مع اى فئة بدأ علاقته، و مع اى فئة بدأ صراعه؟ فالبحث فى هذه الامور يساعدنا ايضاعلى معرفة نبىالاسلام و كيفية ظهوره و بعثته بشكل احسن.

فلوقارنّا كيفية ظهور نبىالاسلام بكيفية ظهور سائر الانبياءـسواءالصادقين منهم ام المدعين وسواءكانوا من اخلافـابراهيم اوغيرهمـمثلا: نقارن بين ظهور النبىمحمد و ظهور ابراهيم و موسى و عيسىالمسيح، ثم ظهور زرادشت و كونفسيوس و بوذا..فاننا سنصل الى نتيجة مهمة جداوهى: ان‌اولئك الانبياءـمن غيرالسلسلة الابراهيميةـهؤلاء عندما ظهروا و ارادوا ان ينشروا أديانهم كانوايتوجهون راسا الى الطبقة الحاكمة و يتقربون الىالبلاط الحاكم و عن‌طريق استخدام السلطةينشرون‌افكارهم واديانهم بين‌الناس علىالعكس من انبياءالله الصادقين‌و السلسلةالتى تبداءبابراهيم حتى‌نبىالاسلام محمد،فهؤلاءكان ظهورهم‌حربا ضدالطبقات الحاكمة و القوى المتسلطة على‌الناس. فابراهيم عندما ظهر حمل فاسا و حطم الاصنام و علق‌الفاس فى عنق‌الصنم الاكبر ليعلن مخالفته مع اصنام عصره و نماردة المجتمع. و موسى عندما يبعث لابسا ثياب‌الراعى و بيده عصاه يدخل على فرعون فى‌قصره و يعلن الصراع بين عقيدةالتوحيد و الفرعونية و عيسى يبعث حتى يقاوم علماء بنى‌اسرائيل لانهم كانوا متحالفين مع جبابرةالروم و يؤيدون الطغاة.

و اما النبى الاكرم محمد فبمجرد بعثته يبدا الحرب ضد اشراف قريش و مالكى العبيد و تجارمكة و سادتها، و مع طبقة الملاك و الاقطاعيين فى‌الطائف. اذن فالمقارنة بين هاتين الصورتين المختلفتين لظهور انبياء السماء و انبياء الارض..

تساعدنا على معرفة اتجاه و حقيقة و اهداف هذه الاديان.

و خامس المراحل لمعرفة الاسلام: هى معرفة الوجوه البارزة و النماذج البشرية التى صنعها هذا الدين او ذاك، و قدمها للتاريخ و الانسانية. مثلاِ: هارون فى رسالة موسى و بولس المقدس فى حياة عيسى و على والحسين و ابوذر فى‌الاسلام، هوّ لاء كلهم نماذج تخرجوا من مدرسة هذه الرسالات، فلودرسنا شخصياتهم و مواقفهم لعرفنا قيمة و حقيقة المبدا الذى كانوا ينتمون اليه و تخرجوا منه.[٢] فمعرفة هذه النماذج بصورة علمية و دقيقة ودراسة مواقفهم و ادوارهم هي مثل التوصل الى معرفة مصنع ماعن طريق البضائع التى ينتجها ذلك المصنع، لان الدين عبارة عن مصنع للانسانية.

و فى هذه المناسبة نضرب‌المثل بالحسين كشخصية بارزة تربى و تخرج على يد الاسلام. حتى نعرف بان من يعتقد بهذا الاله و بهذا القران و بهذا النبى كيف يمكن ان يكون و اى انسان سوف يكون؟ فحياة الحسين معروفة؟ و شعاره الذى اختاره فى الحياة معروف ايضا، و موقفه من قضايا مجتمعه و مصير الامة كان معروفا، كما ان عمله و طريقة تجاوزه عن‌الذات، كل ذلك مشهور و واضح، و انه عندما كان هدفه و مبدؤه و عقيدته معرضة للخطر، كيف ضحّى بكل مايملك و بكل ما يتعلق به. بهذه الصورة يمكن ان يكون الحسين مثلا للنموذج الانسانى المشرق و لكنّ هناك ـ علاوة على معرفة حياة و افكار الحسين و شخصيته المتالقة طريقاً آخر هو مقارنته بشخصيات اخرى من المجتمع الانسانى مثل الفيلسوف المعروف أبى على سينا او الصوفى المشهور حسين‌بن منصور الحلاج ـ المسلمين اللّذين تخرّج احد هما فى الفلسفة، والاخر فى التصوف.

فالمقارنه بين هذه الشخصيات الثلاث تعرفنا بالفرق بين كل من الفلسفة و التصوف و بين دين الاسلام و وجوه لاشتراك بين كل من هذه المدارس المختلفة. فابن سينا كان رجلا فيلسوفا و عالما و كان نابغة عظيمة بحيث يعد

---

٢) و امّا فى دراسة الاسلام، فانّ هناك مرحلة سادسة ايضا، و هى‌البحث عن «الأمّة» لأنّ نبى‌الاسلام (ص) هو النبىّ الوحيد الذى صنع مجتمعا دينيا خاصّاً به لم يكن موجوداً من قبل، اى اوجد «امّة» بكل خصائصها الاسلامية على العكس من سائر الأنبياء، حيث لم يوجد احد منهم امّة او مجتمعاً خاصّاً به و بدينه، و إنّما آمنت بهم المجتمعات التى كانت موجودة فى عصرهم.

مفخرة الفلسفة فـی تاريخ التمدن الاســلامی، ولكــن هذا الانســان الذی يملك شــخصية علمية و ادبية بارزة لو نظرنا الى حياته الاجتماعية و موقفــه الاجتماعی نجده أنه كان انسانا غير مسؤول تجاه مجتمعه، و حتى كان فـی خدمة السـلطة و المنصب، ولم يكن له حساسية بالنسبة لمجتمعه و مصير امته. لانه لم يكـن يعتبر نفسه على صلة بمصير الامة، فوظيفته هی التخصص فی الفلسـفة و التحقيق فـی المسائل العلمية فحسب. و كيف ما تنقضی حياته فلا فرق عنده، و من يمنحه المال و الجاه فهو بالنسبة له سواء. لانه يملك عقيدة خاصة. و لايحمل قضية شـعبه فـی قلبه.

و اما الحلاج ـ الحسين بن منصور ـ فهو صوفی و لهان، قلبه يشـتعل و يحترق بنار الشوق والوله، و الانسان الذی يتحرق لامسؤولية له طبعا ـ و هو فقط يحترق بداخله و يصرخ. يحترق من ای شیء، من الموجدة بالله، لذلك فهـو واضـع راسـه بين كفيه يركض فی شوارع بغداد و يصيح: حطموا هذا الراس و اخرجوا هذا اللغز المستعصی علی، و خلصـونی من هذا الحـريق الذی يشـتعل بداخلی، إنی لســت شيئاً، أنا الله، يعنی (انا) لست موجودا.. كل ما هو موجود فهو الله و وجـود الله، و انا ليس لی وجود. فهو على الدوام غارق فی الوجـد والوله و الشـوق من ذكر الله و يعيش فی هذا المقام من المعرفة و التصوف،

ولكن تصوروا ان مجتمعا ـ يتشكل من ٣٥ مليون انسان مثلا و فيه ٣٥ مليون حلاج، الايتحول الى دار مجانين، يخـرج افـراده الى الشـوارع و يصــرخون.. و يصيح كل واحد منهم: اقتلونی، خلصـونی، بسـرعة انقـذونی، انا لاطــاقة لی، أنا لااملك شيئا و ليس عندی شیء، و ليس فی جبتی الا الله.

فان هذا اللون من الغرق و الاحتراق ـ من شـدة الوجـد الصـوفی ـ هو نوع من الجنون المعنوی. فلو ان المجتمع كله اصبح منصورا الحلاج او اصبح ابن سينا فان مصيره يكون الى الشقاء و الهلاك. ولكــن تصــوروا لو أن مجتمعــا يوجــد فيه (حسين) واحد او يكون فيه عدة افـراد كابی ذر فحينئـذ تصبح عندنا حياة و حــرية ويكون عندنا علم و فكر ايضـا، و تصـبح عندنا المحبة و القـوة و الصـلابة اللازمة لكسر أعداء الله و كذلك الحب لله.

# المحاضرة الثانية

فى‌البدء اتصور من المناسب ان اذكر بعض المواضيع الجانبية، قبل البدء فى‌الموضوع الرئيسى و هذه المواضيع الجانبية ان كانت لاتتعلق بالموضوع الرئيسى ولكن من حيث انها قضايا اساسيةو حيوية،فان طرحها يعد ضروريا‌الان.

ان اغلب المفكرين اصبحوا فى الفترة الاخيرة يتصورون و يفكرون بان لافائدة فى‌الكلام، و انّ الحديث عن «الداء» لايجدى شيئا و يقولون نحن الى الان كنا نتكلم فقط، و نتحدث عن‌الالام، ولم نعمل شيئا، ولم ننزل الى ساحة العمل. فعلى هذا يجب الان ان نكف عن‌الكلام، و كل واحد يجب ان يبدا مرحلة العمل فى اصلاح مجتمعه و بلده و اسرته.

و فى نظرى أنّ هناك نوعا من الاشتباه طرأ على‌الساحة، لانه ـ فى‌الواقع ـ نحن الى الان لم نكن نتكلم او نتحدث عن آلامنا و لم نقم بتحليل الالم او البحث فى جذور المرض بشكل علمى. نحن كنا نئن من الألم فقط. و من البديهى أنّ الانين من الألم لايداوى المرض و لاقيمة له ابدا. نحن و الى الان لم نتحدث باى شكل من الاشكال عن امراضنا الاجتماعية و النفسية، و قد يشتبه علينا الامر فنتصور أننا نعرف تلك الامراض و يجب أن نبحث الان عن علاجها، ولكن مع الاسف يجب ان نقول صراحة بأننا الى الان لم نكتشف المرض ولم نعرفه.

ان اولئك الاشخاص الذين نزلوا الى ساحة العمل، و لمسوا المشكلات و الانحرافات و المآسى عن طريق احتكاكهم بالمجتمع و تجربتهم للعمل، هؤلاء هم يحسون جيدا ان معرفتنا بالآلام و المفاسد و الانحرافات قليلة جدا و أننا لم نتحدث عن آلامنا و عمابنا إلاّ قليلاً. بل وحتى حول عقيدتنا و ديننا لم نبحث ولم نتحدث بالشكل المطلوب، بل ولم نتحدث اصلا.

كيف نتمكن ان ندعى باننا نعرف امراضنا و مشاكلنا الاجتماعية، و تحدثنا عنها بالمقدار الكافى و الان قد جاء وقت العمل، فى الوقت الذى ندرك باننا مجتمع اسلامى، و يجب ان تكون أسس مجتمعنا اسلامية، و الحال أننا لم نعرف الى الآن ديننا و إسلامنا بعد.

فانا كمعلم عندما يسالنى احد طلابى عن بعض الكتب المؤلفة فى

بعض المواضيع، فلا اقدر ان اجيبه و اعين له شيئا حيث لاتوجد عن كثير من المسائل كتب باللغة الفارسية و كم يبعث هذا على الخجل حقا.

ان امتنا منذ قرون تفتخر بانتسابها الى مذهب اهل البيت و بولائها لعلى. فمنذ القرن الاول الهجرى عندما فتح الاسلام بلاد ايران، و بسرعة ترك مجتمعنا دينه القديم، و اختار الاسلام.

و منذ ذلك ليوم ـ سواء على المستوى الرسمى او على صعيد الاحساس الجماهيرى و العقيدة الشائعة ـ اتبع نهج على و اتبع شيعة على و اختار حكومة على العادلة. اما اليوم فعندما يسالنى الطالب الجامعى عن اى كتاب يطالعه عن على، او عن انصار على و اتباعه الاوائل، الذين صاغوا تاريخ الشيعة فى القرن الاسلامى الاول، و بقوا اوفياء لعلى فى ظروف الشدة و الكفاح من هم؟ اتحير و لااقدر ان البى طلبه. نحن نعرف اولئك الرجال، و لكن نعرف اسماء هم فقط.

بالنسبة الى امة تنتسب الى مذهب على يكون من المخجل ان لايكون عندها كتاب قيم عن شخصية على او احد اصحاب على ـ اى لم تكتب كتابا ذاقيمة يشبع حاجة هذا الجيل و يملأ فراغه الفكرى.

انه من المخجل ان يكون (جورج جرداق) المسيحى يعرفنا الامام على، و ذلك بعد ١٤ قرنا، و (جودة السحار) من اخواتنا السنة يكتب عن (ابى ذر). و سلمان الفارسى الذى يعتبر اول رجل من فارس يتبع الاسلام، و يعتبر مفخرة للاير انيين و الجنس الآرى، و هو رجل عظيم و نابغة حيث جاء الى النبى ـ فى مستهل دعوته ـ و اتبع دينه و تقرب اليه، و قربه النبى اليه حتى جعله من اهل بيته عندما قال: سلمان منا اهل البيت، فمثل هذا الرجل الذى يعتبر مفخرة من الناحية الوطنية و العلمية و الدينية، لم يكتب عنه سوى كاتب فرنسى و اما فى اللغة الفارسية فلم يكتب عنه حتى كتاب من اربع صفحات. لست ادرى كيف تتمكن ان ندعى بان مرحلة المعرفة و التحدث قد انتهت، و قدجاء الآن وقت العمل، و انا لا ادعى بانه ليس الان وقت العمل، لأنّه

يجب ان يكون الكلام والعمل توأمين، وتكون المعرفة والتطبيق معا، و هذه هى سنة النبى محمد، حيث لم يكن يفصل بين الكلام والعمل، ولم يقسم الحياة الى فصلين: مثلا الفصل الاول: للكلام فقط، والفصل الثانى للعمل فقط. وهذا ادعاء

ساذج اذا قلنا اننا تكلمنا كثيرا و يجب ان لاتتكلم بعد.

اننا تأوهنا فقط و صرخنامن الألم دائماً. وأنا ايضاً أعتقد، بانه يجب علينا ان ندع التاوه والانين، ونبدا الحديث عن المرض- بطريقه صحيحة و موضوعية. يجب ان يكون المبدا الذى نعتقد به اساسا لتفكيرنا و عملنا، و يجب ان نعرف عليا و نعرف خصائصه، وان نعرف اباذر و سلمان وسائر صحابة النبى والامام على. ومع الاسف لايوجد كتاب قيم للمطالعة حول هذه الشخصيات والوجوه الانسانية المقدسة - هؤ لاء الذين نحترمهم من الجهة الانسانية بغض النظر عن قيمتهم الدينية.

واذا وجد الان بعض الكتب فهى كلها مترجمة ونحن لم نخط سطرا واحدا. ومن الملاحظ فى مجتمعنا وبالذات فى جامعاتنا الدينية - أنّ من يفهم القران جيّدا يُعدُّ رجلا «فاضلا»، ولايعدّ «عالما»، لان درجة العلماء فوق درجة الفضلاء، يعنى ان معرفة القران و دراسته بدقة وفهم تعتبر فضلا، ولاتعد علما يعنى أن قيمته ثانوية، والفضلاء هم الطبقة الذين يفسرون القران و يعرفون تاريخ الاسلام والنبى والصحابة، و يمارسون هذا المجال. فهؤلاء يطلق عليهم الفضلاء، اى العلماء من الدرجة الثانية.

بهذا المعنى يجب ان نعتبر النبى والامام عليا وأباذرمن هذه الطبقة - اى طبقة الفضلاء - وليس طبقة علماء الاسلام.

لهذا السبب فانى اعتقد بانّ اهم عمل و أوجب مسؤولية والزم وظيفة علينا اليوم هوأن نتحدث بشكل دقيق وعلمى و نتحدث عما نعانى و نعرف امراضنا. لان الذين بداوا العمل فى مجتمعنا و فى البلاد الاسلامية، وارادوا اصلاح مجتمعاتهم لم تثمر جهودهم اوكانت ثمارها قليلة لانهم عندمادخلوا الى مرحلة العمل لم يعرفوا ماذا يصنعون، وطبيعى عندمالانعرف ماذا نريد لانعرف ايضا ماذا نعمل. لهذا فان أول وظيفة علينا تاديتها هى ان نعرف ديننا و مدرستنا الفكرية الحقّة.

ومع الاسف فاننا - بعد قرون طويلة من انتسابنا لهذا الدين - علينا ان نبدا الان معرفته لاالعمل به.

وكما قلت فى الحديث السابق فان معرفة الاسلام لها طرق عديدة مختلفة: احدى تلك الطرق هى معرفة الله و مقارنته بالمعبودات فى المذاهب الدينية الاخرى،

و معرفة كتابنا (القرآن) و مقارنته بالكتب السماوية والدينية الاخرى - ثم معرفة شخصية (نبى الاسلام) و مقارنته بسائرالمصلحينالكبارللبشرية فى طول التاريخ، و هكذا معرفة شخصيات الاسلام البارزة و خريجى مدرسته الفكرية والروحية، و مقارنتهم باتباع المذاهب الاخرى وحواريى الاديان الاخرى.

هذه وظيفة كل مفكراسلامى واع - فى هذاالعصر - ان يعرف الاسلام بهذه الطريقة - باعتباره المدرسة الفكرية التى من شأنها ان توقظ الفرد والامة وباعتباره الرسالة الانسانية التى تقود مستقبل البشرية. وعلى كل واع ان يعتبر هذه المسؤولية وظيفة عينية متعلقة به، وايا كان تخصصه الفكرى و العلمى فعليه ان يلقى نظرة جديدة على الدين و شخصياته العظيمة من خلال تخصّصه. لان الاسلام له ابعاد مختلفة و مجالات كثيرة يتمكن كل باحث حسب اختصاصه ان يجد جانبا من الجوانب لكى يتامل و يدقق فيه.

## نظريات مستنبطة من القرآن

ولان دراستى الجامعية كانت فى هذا المجال و هو علم الاجتماع و فلسفة الاديان، لذلك حاولت بدورى ان ادون علم اجتماع دينى على اساس الاسلام، و بمصطلحات مقتبسة من نصوص القرآن والمصادر الاسلامية.

وقدتوصلت الى نتائج طيبة - ضمن تحقيقى و تتبعى - و ادركت مسائل جديدة لم اتصورها من قبل.

فاحدى تلك المسائل هى ما توصلت اليه من مطالعتى للقرآن والسنة و هى عبارة عن نظريات علمية فى التاريخ و علم الاجتماع مستمدة من حياة النبى وطريقة عمله. و هذا الامر هو غير تحليل القرآن والايات القرانية او احاديث النبى وحياته الاجتماعية والسياسية والاخلاقية. او بعض الفلسفات والرؤى، على ضوء العلم الحديث. مثلا نفسر ايات القرآن الكونية على ضوء علم الفيزياء، اونفهم آياته الاجتماعية والتاريخية على ضوء علم الاجتماع والتاريخ. ان هذه مسالة اخرى: و هى انّ قضايا جديدة فى علم التاريخ والاجتماع و العلوم الانسانية استنبطتها من القرآن. يعنى ان القرآن اعطانى مبادىء و قوانين جديدة - فى هذا المجال - بل لقد اكتشفت اطروحة جديدة ونظرية فلسفية فى علم الاجتماع

والتاريخ، و عندما راجعت التاريخ وعلم الاجتماع و حققت فيهما تاكدت عندی تلك النظرية.

هناك بعض المسائل التی وجدتها بالاستعانة بالقرآن فی العلوم الانسانية المعاصرة، والتی لم تكن مطروحة من قبل. احدی تلك المسائل مسالة (الهجرة) ففی كتاب (محمدخاتم النبيين) من منشورات «حسينية ارشاد»، بحثت مسالة الهجرة من الزاوية التاريخية فقط بمعنی ان الهجرة كانت مهاجرة جماعة من منطقة الی اخری. لقد ادركت من لهجة القرآن بالنسبة الی الهجرة والمهاجرين وكذلك من حياة النبی و من نظرة الاسلام الی ذلك.. ادركت أن الهجرة ـ بخلاف ما يتصوره المسلمون عنها ـ ليست مجرد حادثة تاريخية.

فتصور المسلمين للهجرة هو ان جماعة من اصحاب النبی قاموا بامر النبی بالهجرة من مكة الی الحبشة او المدينة.

اما الهجرة فی التاريخ فهی عبارة عن انتقال الاقوام البدائية اوشبه متحضرة من منطقة الی اخری علی اثر العوامل الطبيعية والجغرافية او السياسية.

والهجرة عند المسلمين مجرد حادثة وقعت فی حياة النبی والمسلمين. اما انا ومن خلال مراقبة اسلوب القرآن فی التحدث عن الهجرة، فقد ادركت بان الهجرة هی قانون فلسفی و اجتماعی عميق. و بمراجعة التاريخ عرفت ان الهجرة قانون اجتماعی عظيم جدا و جديد و ليس بهذه البساطة التی يذكرها التاريخ والمؤرخون. بل فلاسفة التاريخ ايضا لم يفهموا الهجرة ـ بهذه الصورة الدقيقة التی، ساعرضها ـ و هی ان الهجرة عامل من عوامل التطور والتمدن فی طول التاريخ. فمجموعة المدنيات السبع والعشرين ـ فی طول التاريخ التی نعرفها الی الان كلها وليدة هجرات تمت من قبل، ولايوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. و من هذه الناحية، فلاتوجد قبيلة واحدة كانت بدائية ثم من دون ان تتحرك و تهاجر من ارضها الی ارض ثانية، تمكنت صدفة ان تتحضر و تغيرت ثقافتها واوجدت ثقافة جديدة متقدمة.

لقد استنبطت هذه المسالة المطروحة فی التاريخ وعلم الاجتماع من خلال تعبيرات القرآن واوامره المستمرة بالهجرة ـ وهی اوامر عامة لكل المؤمنين ـ فكل الحضارات فی العالم سواء آخرها واحدثها وهی حضارة امريكا الحديثة ـ او

اقدم المدنيات التى نعرفها و هى الحضارة السومرية، كلها وجدت على اثرالهجرات. يعنى ان المجتمع البدائى ظل بدائيا طيلة بقاءه فى ارضه، وبعد ان هاجر الى ارض ثانية واقام فيها تمكن ان يتحضر و تغيرت حالته جذريا. فعلى هذا فان كل الحضارات كانت وليدة هجرة المجتمعات البدائية. وهكذا كثيرمن هذه المسائل التى ادركتها عن هذاالطريق يعنى ان القران والمصادرالاسلامية ساعدتنى ـ بقدرما كان عندى من الرصيد على فهم هذه المسائل المتعلقة بعلم التاريخ والاجتماع ـ بشكل افضل وادق و بشكل جديد.

حينئذ اكتشفت هذه الحقيقة وهى انه يمكن لنا عن طريق الاصطلاحات القرانية ان نستخرج كثيرا من المسائل العلمية المطروحة فى احدث العلوم الانسانية المعاصرة..

ان الموضوع الذى اريد ان اطرحه الان فى علم الاجتماع الاسلامى هو ان اهم مشكلة فى علم التاريخ والاجتماع هومعرفة العامل الاساسى للتغيير الاجتماعى والتحول والنهضة فى المجتمعات ـ ماهوالعامل الحقيقى الذى يحدث تغييرا مفاجئا ويولد التحول فى المجتمع او يسبب اضمحلال و انحطاط المجتمع؟ ماهوالعامل الذى يوجد النهضة والحركة التغييرية، ويدفع المجتمع الى ان يغير روحه و هدفه و شكله و اتجاهه مرة واحدة فى مدة قرن او قرنين من الزمان، وتتغيرعلاقاته الفردية والاجتماعية بشكل جذرى.

هذا السوءال كان ولايزال مثارا للبحث منذ قرون، وبالخصوص قبل قرن والى الان و طرح بوضوح ودقة وباستمرار من قبل المدارس الاجتماعية والتاريخية المختلفه و كان هذاالسؤال يطرح نفسه باستمرار على ساحة البحث و المناقشة: ماهو (الموتور) المحرك للتاريخ والعامل المؤثر فى النهضات والتحولات التى تحدث فى المجتمع الانسانى؟

وانقسمت المدارس الاجتماعية واختلفت فى الاجابة على هذا السؤال، وكل مدرسة اشارت الى عامل معين وركزت عليه بشدة. وفى الحقيقة هناك بعض المدارس الفكرية لاتعتقد بالتاريخ اصلا، فهى تعتبر التاريخ مجموعة من التنقلات الماضية والتقلبات الغابرة ولاتعتبر لها اية قيمة، فاصحاب هذه المدرسة لايعتقدون بوجودقانون اجتماعى او عوامل تحكم المجتمع ايضا. فالفوضوية مثلا

لاتؤمن بفلسفة علم‌الاجتماع والعلوم‌الانسانية و تحمل نظرة سيئة تجاهها، لانها تؤمن بالفوضى وتعتبران سعادة الانسان و راحته هى فى نفى‌القوانين الاجتماعية.
وهناك نوع من‌الفوضوية‌العلمية التى لاتقرّ لفلسفة الاجتماع والعلوم الانسانية لان اصحاب هذه‌النظرية يعتقدون بأنّ العامل‌الاساسى هومحض‌الصدفة، و يقولون ان التغييرات والحركات والتحولات و مراحل الرقىّ والانحطاط فى حياة‌الشعوب كلها تحدث على اثر الصدفة، مثلا فجاة يحمل‌العرب على‌الفرس وصدفة ينهزم‌الفرس امام‌العرب، و بعدها يسلم‌الايرانيون، و صدفة يحمل جنكيزخان على ايران و تضعف ايران امام‌الجيش المغولي و تستسلم، ويدخل المغوليون الى ايران.. ثم يتأثرون بثقافة و شكل‌الحياة الاسلامية.. والايرانية.. ويحدث لديهم مثل هذا التغيير‌الجذرى. وهكذا الحرب‌العالمية الاولى فانها نشبت بالمصادفة ايضا، والحرب‌العالمية‌الثانية هى‌الاخرى حيث كان من‌الممكن ان لاتحدث. والخلاصة ان هؤلاء يعتبرون الصدفة عاملاً للتغييروالتحول وحتى‌الحروب.
وهناك جماعة اخرى و هم الماديون يؤمنون بالجبرية‌التاريخية، وُ يعتقدون ان‌التاريخ والمجتمع ـ فى طول‌التاريخ منذ البداية وحتى الان ـ اِشبه شىء بالشجرة. هذه الشجرة كانت بذرة ثم انفلقت و فتقت التراب و خرجت من‌الارض ثم صارت لهاجذور و سيقان و غصون واوراق و نمت واثمرت ـ كل ذلك حدث حسب قوانين جبرية، و جبرا جاء‌الشتاء و جفّت اوراقها و غصونها و فى‌الربيع جبرا تورق و تزهر، فهى تخضر و تسمق و جبرا و تجف و تصفر جبرا.
انّ هؤلاء ـ القائلين بالحتمية التاريخية، يعتقدون بان‌المجتمعات‌الانسانية هى‌الاخرى وطيلة تاريخها ـ كانت تسير وفق قوانين جبرية.. وهذه القوانين‌الجبزية التى تحكم حياة‌المجتمعات هى مثل‌القوانين الجبرية الموجوده فى‌الطبيعة، و جبرية التاريخ مثل جبرية‌الطبيعة النافذة قوانينها على طول‌التاريخ.
وعلى هذا الاساس فان افرادُ المجتمع الانسانى ليس لهم اى دخل فى تعيين مصيرهم اوتغييره ولايتمكنون ان يتدخلوا فى ذلك، لان‌المجتمع عبارة عن كائن من‌الكائنات الطبيعية وهوينمو بواسطة العوامل والقوانين الطبيعية تماما.
و جماعة ثالثة تقدس ابطال‌التاريخ و الشخصيات‌الممتازة، مثل جماعة الفاشية والنازية. و مثل‌العلماء الكبار امثال (كارليل) الذى كتب عن حياة نبى الاسلام

كتابا، و (امرسون) و غيرهم. فهؤلاء يعتقدون بان القوانين مجرد آلة تستخدم و ليس لها دخل فـي تغيير المجتمع، و كذلك الافـراد العـاديون والمتوسـطون - في المجتمع - لادورلهـم فـي تغيير المجتمع لانهـم آلة طبيعية بيد من يستخدمهم ايضا، والعامل الوحيد الذى يقوم باصلاح المجتمع و تغييره وسوقه الى الامام او ارجاعه الى الوراء هم الشخصيات البارزة فيه فقط.

ف(امرسون) مثلا يقول قدموا لى عشرة من الشخصيات الكبيرة، حتى اخبركم عن تاريخ المجتمع البشرى قبل أن اقراهُ، انتم عرفونى بنبى الاسلام حتى اخبركم عن تاريخ الاسلام، و صفوا لى حياة نابليون حتى اعرض لكم تاريخ اوربا الحديث. انّ مصير المجتمع فـي نظر هؤلاء هو بيد الشخصيات الاجتماعية الكبيرة الذين هم قادة المجتمعات. وعلى هذا فان سعادة المجتمع و شقاءه ليسا بيد الافراد العاديين ولا بيد الشعوب، وليسا بيد العوامل والقوانين الطبيعية والاجتماعية الجبرية، و ليسا بالصدفة والاتفـاق، وانما كل ذلك بيد الشـخصيات والعـظماء الذين يظهـرون فى بعض الاحيان و يغيرون تاريخ مجتمعاتهم، وربما غيروا مصير البشرية كلها.

اما (كارليل) فيكتب عن حياة النبى محمد فيقول: ان نبى الاسلام محمداً عندما دعا عشيرته الاقـربين فكـذبوه كلهـم، كان علىٌ حينذاك غلاما يبلغ عشـرسنين فنهض و اجاب دعوة النبى و بايعـه و صـدقه. و هنا يستنتج كارليل هذه المعـادلة حسب نظريته و طـريقة تفكيره فيقـول: «عندما التفـت يد على الصـغيرة تلك اليد الكبيرة اى يد محمد تغيرت مسيرة التاريخ».

وهناك فى المقابل نظرية اخرى تقـوم على اسـاس أن الناس وكافـة الشـعب قد يتدخلون مباشرة في تغيير مصيرهم ولكن ليست هنا فكرة - حتى فى الديمقراطية القديمة والحديثة فى مختلف مراحلها - تقول بان الناس هم العامل الاسـاسى فـى تغيير المجتمعات و تطورها. فالمدارس الديمقراطية تعتقد بان احسن انظمة الحكم هى التى يكون للشعب فيها راى و دخل، ولكن منذ ديمقراطية «اثينا» ولحـد الان لم تات اية نظرية لتقـول بان سـواد الناس يشكلون العـامل الحقيقـي للتغيير الاجتماعى و التحول التاريخى. يعنى ان اشد الديمقراطيين من علماء الاجتماع فى نفس الوقت الذى يعتقـدون بان احسـن اشكـال الحكـم والانظمة الاجتماعية والسياسية هى التى يكون للشعب فيها حق التدخل والاختيار وان يعطى فيهـا رايه

ويختار بنفسه الحكـومة؛ مع ذلك لايعتبرون الشـعب هوالعـامل الاســاسى للتغيير والتحول الاجتماعى، بل هؤلاء ايضا اما يعتقدون بعامل الجبرالطبيعى و التاريخى، اويعتقدون بعامل الشـخصيات الممتازة والصـفوة اوعامل الصــدفة وربماالمشــيئة الالهية.

كما ان الممجدين بالشخصيات ينقسمون قسمين:

قسم منهم يعتقدون بان شـخصية كبيرة مثل موسـى و عيســى و بوذا تظهــر وتغيّرالمجتمع، هؤلاء هم يقدسون الشخصيات الممتازة.

وقسم اخريعتقدبانه فـى البداية يظهـر شـخصية ما، ثم ان جماعة من الصــفوة والخــواص والنوابغ يلتقــون حــوله، ويشكلون جماعة متعــاونة وهذه الجماعة من الصفوة يقودون المجتمع فى الطريق الذى يريدون ونحوالهدف الذى يشـاؤون، وهؤلاء نظريتهم تقديس الصفوة الممتازة.

اما فى الاسلام والقرآن فـلايوجد اى مكـان لاى من هذه العـوامل المطروحـة بهذا الشكل. ان اعظم شخصية انسانية فى نظرالاسلام هى شـخصية النبى، و اذا كان الاسلام يعطى للشخصية هذا الدور باعتباره العامل الرئيسى لتغييرالمجتمعات والتاريخ، لكان من اللازم ان يعتبرالانبياء وخاصة نبى الاسـلام محمداً ـ هم عامل التغييروالتحول الاجتماعى وليس الأمر كذلك، فالقرآن ذكر اوصاف النبى ورسالته والدورالذى يقوم به، وهو ان يقـوم بدورالمبلغ للرسـالة و عليهالبلاغ و ليس اكثر. فهو مسؤول عن ابلاغ الرسالة، و هوبشير ونذير.

وعندما يتاثرالنبى من عدم اهتداء الناس و عدم قـدرته على هدايتهـم فـان الله يبين له انك مسؤول فقط عن تبليغالرسـالة ولسـت مســؤولا عن رقــى الناس او انحطاطهم وهم المسؤولون عن ذلك.

ـ وتجد فى القرآن الكريم ان النبى لم تعرض شخصيته كعـامل وحيد و اسـاسى للتغيير الاجتماعى واحداث التحـول التاريخـى، بل يعتبر على انه مبلغ يقـوم بتبليغ الرسالة وتوضيح الحقيقـة للناس، و تنتهــى رســالته عند هذا الحــد (انما عليك البلاغ).

وللناس بعد ذلك ان يتبعوا الرسالة و يختاروا الحقيقة اولا يفعلوا ذلك: من شـاء فليؤمن و من شاء فليكفر...

كما لامكـان للصـدفة فـي قـاموس هذا الدين.. لان جميع الامور بيدالله. ان الصدفة بمعنى وجـودحادثة من دون علة وبدون هدف فـى نظام الكـون، لايمكـن تصورها لافىالطبيعـة ولافـى المجتمع الانسـانى. وعندما ياتى القـرآن على ذكرالشخصيات البارزه فىالتاريخ ـ فانه يذمّهم ان كانوا ظالمين كافـرين و اذا ذكر شخصية صالحة خيّرة فانه لايعتبره عاملاً ذاتاثيرفى تغيير مجتمعه.

والحقيقة ان الجماعة الذين يخاطبهم الدين ويتوجه اليهم كل نبى هم يشكلون العامل الرئيسى و المؤثر للتغيير الاجتماعى فى نظرالاسـلام. فعلى هذا الاسـاس نحن نلاحظ ان المخاطبين فى القرآن هم «الناس»

فالنبي مبعـوث الىالناس ويتوجـه فـى خـطابه الىالناس، ويجيب على اسئلة الناس، و عامل التغيير والتحول والرقى او الانحطاط همالناس، كما ان مسـؤولية المجتمع والتاريخ تقع على عاتق الناس.

كلمة «الناس» كلمة قيمة و عظيمة جدا ولاتقـابلها فـىالقيمة كلمة اخـرى.. و ليست لها مرادف آخر، والكلمة الوحيدة التى تشـبهها فـىالوزن واللفـظ هى كلمة «ماس = masse» وهى اى «masse» ـ فـى علمالاجتماع ـ عبارة عن عامةالشعب بدون ملاحظة مميزاتهم و خصوصياتهمالطبقية او الفروق الاجتماعية التى تخرجهم عن عموم الجماعة الانسانية.

و لفـظة (الناس) تشـتمل على هذا المعنى بالضبط وهو عموم النوع الانسـانى بدون اضافة معنى آخر، بينما كلمة الانسان اوالبشر و مايرادفها تعـطى نفس المعنى ولكن باضافة صفة اخلاقية او اعتبار معين.. (مثلا يقال البشـر مقـابل الحيوان او الانسان مقابل الحيوان، ثم يقسم الى انسان مؤمن و تقى و غيرذلك).

انطلاقا من هذا فاننا نستنتج أن الاسلام هو اول مدرسة اجتماعية تعتبرالمصدر الحقيقى والعامل الاساسى والمسؤول المباشر عن تغيير المجتمع و التاريخ، ليس هم الشخصيات المختارة ـ كما يقول نيتشه ـ وليس الاشراف والارسـتقراطيون ـ كما يقول افلاطون ـ وليس العظماء والقادة، كمايقول كارليل وامرسـون ـ وليس اصـحاب الدم الطاهر ـ كمال يقـول الكسـيس كارل ـ وليس المثقفـون او رجال‌الدين، بل عامةالناس.

و تبرز اهمية هذه الحقيقة: اكثر عندما نقارنها بالنظريات الاخرى والمدارس الفكرية المشابهة للاسلام. فالى من تتجه تلك المدارس فى خطابها؟ قسم منها يخاطب الطبقة المتعلمة والمثقفة والمفكرة، والقسم الاخر يخاطب الطبقات الممتازة فى المجتمع، وبعضها تتحدث مع العنصر المتفوق، و بعضها تتحدث مع «سوبرمان»، وهناك مدارس اجتماعية تهتم بطبقة خاصة من المجتمع كالبروليتاريا او البرجوازية.

اما فى الاسلام فلايوجد فيه اى مقياس، من هذه الميزات و الاعتبارات، وانما العامل الرئيسى فى تغيير المجتمع هم كافةالناس بدون اى امتياز طبقى او تفرقة عنصرية او اية خصوصية اخرى.

و هنا مسالة ثانية يمكن استنتاجها من القرآن وهى انه فى الوقت الذى يكون (الناس) هم المخاطبون بالقرآن وهم مصدر التغيير والتحولات الاجتماعية ويتحملون المسؤولية، الا ان العوامل الاخرى ـ اى عامل الشخصية والصدفة والسنن ـ لها نصيب من التاثير فى المجتمع ايضاو عرضت كعوامل اضافية وثانوية:

اذن.. فى الاسلام اربعة عوامل تشترك فى التغيير وايجاد التحولات الاجتماعية وهى، الشخصية، والسنّة، والصدفة، والناس.

والسنة ـ كما يستنبط من القرآن بهذا المعنى هى ان المجتمع يسير على اساس ثابت ـ و بتعبير القرآن ـ يسير على سبيل معين و عنده مسلك و منهج خاص. فالمجتمعات تملك فى اساسها قوانين جبرية وحتمية لاتتغير، فالمجتمع يشبه الكائن الحى مثل الجسم الذى تحكمه قوانين طبيعية وعلمية جبرية لاتتغير.

لهذا فان كل التحولات والتغييرات الاجتماعية تتم على اساس قوانين جبرية و سنن لاتتغير هى التى تشكل مسيرة المجتمع.

من هنا نجد ان الاسلام يقترب قليلا من الجبرية التاريخية والاجتماعية، لكن الاسلام يقول شيئا اخر يعتبر تعديلا فى قانون الجبرية، وهو ان المجتمع الانسانى فى نظر الاسلام اى الناس ـ مسؤولون ـ و كل فرد من افراد المجتمع مسؤول عن تعيين مصيره: (لها ماكسبت ولكم ماكسبتم) و (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم) وقوله تعالى (كل نفس بماكسبت رهينة) كل هذه بمعنى المسؤولية الفردية والاجتماعية.

فعلى هذا فان الفرد والمجتمع الانسانى كلاهما مسؤولان عن اعمالهما و هما مسؤولان امام الله، يعنى ان كلا منهما يصنع مصيره بيده.

فى علم الاجتماع يوجد عاملان، احدهما يؤكد مسؤولية وحرية الانسان فى تغيير مجتمعه وتطويره، والآخر يشير الى عامل القوانين الجبرية والقطعية والعلمية الخارجة عن اختيار الانسان و هى التى تسيّر حياة المجتمع على اساس ثابت لايتغير.

و هذان العاملان ـ حسب الظاهر ـ متناقضان فى نظر علماء الاجتماع خلافاً لنظرة القرآن، الى هذين القطبين: فهو ينظر الى ان المجتمع له قوانين جبرية وقطعية لاتتغير، والانسان باعتباره فردا من افراد الناس عنده مسؤولية تجاه المجتمع فى تغييره و تطويره. فهما ليساغير متناقضين فحسب، بل ويكمل احدهما الاخر. وهكذا فى الطبيعة، فان المهندس الزراعى مسؤول عن تابير وتثمير الاشجار وتنمية النباتات، مسؤول عن استخراج احسن الثمار من هذه الاشجار، كما انه مسؤول عن سقى ورعى وتزيين هذه الاشجار. لهذا فان المهندس الزراعى هنا يملك كامل الاختيار، وبالنتيجه فهو مسؤول. ولكن من ناحية ثانية نعرف جيدا بان هناك قوانين فى علم النباتات يتوقف عليها تطوّر الثمار والنباتات، لانها قوانين ثابته وجبرية لاتتغير. فعلى هذا الاساس يتمكن الانسان بالتوسع فى علمه واطلاعه أن يستخدم القوانين الموجوده والثابتة فى النبات بشكل احسن و اجدى. فالمهندس الزراعى لايتمكن ان يضع قانونا جديدا فى علم النبات، اويبطل قانونا ثابتا من قوانينه بل القوانين الحاكمة فى الطبيعة حاكمة عليه ايضا ولايقدران يغيرها، ولكنه يتمكن ان يستخدم تلك القوانين بطريقة علمية ويستعملها ـ بدل ان يغيرها ـ وبواسطة كيفية الاستفاده من هذه القوانين نفسها يستطيع أن يحول الثمار الرديئة والمتوسطة الى جيدة و ممتازة.

و مسؤولية الانسان فى المجتمع هى بهذا الشكل ايضا، يعنى ان المجتمع مثل المزرعة والبستان قائم على اساس السنن الالهية وينمووينكامل والانسان مسؤول فى هذا المجتمع، ولايتمكن ان يتخلص من المسؤولية معتمداً على الجبرية الخيامية اوالحتمية التاريخية و ما الى ذلك، ولايقدران يبعد نفسه عن المسؤولية تجاه المجتمع و مصيره. فالقران فى نفس الوقت الذى يعترف بان

المجتمع يسير وفق قوانين ثابته لاتتغير، فانه لم ينف مسؤولية الانسان فـى هذا المجتمع، فالانسان فى نظرة الاسـلام مسـؤول عن ان يعـرف تلك القـوانين الاجتماعية وان يسخرها لصالح تكامل المجتمع، ولكـن باية وسيلة؟ الجـواب: بعلمه.

لماذا يكـون المهندس الزراعى اكثر مسـؤولية فـى تنمية مزرعة ما والقـدرة على الاستفاده والانتفـاع منهـا؟ لان عنده علما اكثر بقـوانين الزراعة والنبات، وبالنتيجة عنده حرية اكثر فـى تغيير مصـير الاشـجار والنباتات، وكذلك الانسـان فهوبمقدار ماعنده من المعـرفة بالقـوانين الاجتماعية والسـنن التى تحكـم حياة المجتمع يكون مسؤولا وذا حرية اكثر فى تغيير مصير المجتمع وتطويره.

فالدين الاسلامى كمدرسـة علمية فـى علم الاجتماع يعتقـد بان تطور المجتمع لايتوقف على اساس الصدفة فقط لان المجتمع كائن حيّ له قوانين ثابتة لاتتغير. والانسان له الاختيار والحرية وبواسطتهما وبالتدخل فـى تلك السـنن والقـوانين و العلم بها و تصريفها يتمكن ان يؤسس مصـيرا افضـل للفـرد والمجتمع ويرسـم طريقا احسن لسـعادته. من هنا تتاكد مسـؤولية الانسـان، ويتولد الاعتقـاد بان المجتمع مثل كائن حى يعيش على اساس قوانين علمية ثابته.

وربما كان من معانى الحديث القـائل (لاجبر ولاتفـويض بل امر بين الامرين) الذى صـدر حـول مسألة الجبر والاختيار هو هذا المعنى من وجهـة نظر علم الاجتماع.

فمن ناحية يوجـد الانسـان يعنى الارادة والاختيار، و من ناحية ثانية، يوجـد المجتمع يعنى (القوانين الثابته) و بتعبير القرآن: «السنة» التى لن تجد له تحـويلاً والانسـان هو المسـؤول المباشـر عن حياته الفردية والاجتماعية والجمع بينهما هو الامر بين الامرين. فعلى هذا فـالانسان حـر فـى عمله واختياره، و مجبر فـى ممارسة هذه الحرية على ان يتبع القوانين الموجودة فى الطبيعة.

حتى عامل «الشخصية» فى الاسلام ليس عاملا فعالا هو الاخـر، فحتى الانبياء لاياتون بقـوانين جـديدة لحياة المجتمع لأن فضـل الانبياء ـ بغض النظر عن درجاتهم فى النبوة ـ على سائر المفكـرين والمصـلحين هوانهـم اعرف بسـنن الله الحاكمة فى العالم والطبيعة، وعلى هذا الاساس فـانهم كانوا اقـدر على الاسـتفاده

من الحرية الانسانية فى تحقيق اهدافهم الاجتماعية. وهذه حقيقة ابرزها التاريخ جيدا وهو ان الانبياء كانوا اكثر نجاحا و موفقية من سائرالمصلحين. فالمصلحون ياتون و يطرحون احسن البرامج ويرفعون الشعارات الانسانية فى كتبهم و مقالاتهم، لكنهم لم يتمكنوا ان يغيروا مجتمعا او يؤسسوا مدنيةً؛ بينما الانبياء صنعوا حضارات و مجتمعات و غيروا التاريخ، ليس لانهم وضعوا قوانين جديدة مقابل القوانين الالهية، كما قديقول الفاشيون و عبدة الشخصيات و انما بقوة النبوة والرسالة و مواهبهم الخارقة للعادة كانوا يدركون سنة الله الموجودة فىالطبيعة والمجتمع و يطبقونها، وبتحكيم ارادتهم و اتّباعهم لتلك القوانين، حققوا اهدافهم و نفذوا رسالتهم فىالحياة.

وهكذا، عامل الصدفة بمعناها الفلسفى لايمكن ان توجد فىالاسلام، لان الله هوالذى يدبرالامور ويتصرف فى احداث الكون مباشرة، ولذا فان الصدفة ليس لها مبرر منطقى فلا وجود لها فىالطبيعة والمجتمع.

نعم هناك نوع من التصادف و بمعنى خاص يمكن وجوده و تاثيره فى مصير الانسان، وهو انه مثلا: يظهر جنكيزخان فىالمغول و حسب السنة الاجتماعية يسيطر على الاوضاع و يتحول الى قوة عظمى ثم يهجم على ايران، ولكن هزيمة ايران امامه فهى نوع من المصادفة، و كان يمكن ان لايقع مثل هذه الهزيمة. فمثل هذا النوع من المصادفات يمكن لها ان تقع وتؤثر فى مصير بعض المجتمعات.

والخلاصة ان العوامل المؤثرة فى مصير المجتمعات هى اربعة: «العظيم اوالشخصية» و «الصدفة» و «سنةالله فى خلقه» و«الناس» و فى نظرالاسلام فان اكثر العوامل اهمية و تاثيرا هما اثنان: «الناس» و «السنة»، لان الناس هم افراد المجتمع، والسنن هى القوانين العلمية الموجوده فىالمجتمع.

الشخصيات والعظماء فىالاسلام هم اولئك الذين يدركون السنن الالهية جيدا عن طريق الكتاب (بمعنى الكتاب الخاص فى الاسلام اى: الحكمة اوالهداية) فهؤلاء اكتشفوا تلك السنن و هذا هو سرانتصارهم.

واما تاثير كل عامل من هذه العوامل الاربعة فى تغييرالمجتمع فهو متوقف علىالوضع الذى يعيشه ذلك المجتمع، والمرحلة الفكرية والاجتماعية التى

يعاصرها. ففى المجتمعات التى يكون فيها الناس، اى افراد المجتمع متقدمين فكريا ويعيشون فى مرحلة راقية من الثقافة والمعرفة فان تاثيرالشخصية اوالعظيم فى تلك المجتمعات يكون ضعيفا واما فىالمجتمعات القبلية المتأخرة فالشخصية لهاتاثيراشدعلى المجتمع.

وهكذا ففى كل مرحلة من مراحلالتخلف اوالتقدم فىالمجتمع يكون لواحد من هذه العوامل الاربعة المذكورة تاثيراكثرمن سائرالعوامل الثلاثة و فى الاسلام فان شخصية النبى محمدكان له اثر فعال و عظيم فى تحقيق التحول والتغيير والنهضة وايجاد حضارة المستقبل، وتغيير مسيرة التاريخ. لماذا لان النبى محمداً عاش فى منطقة جغرافية خاصة فى شبه الجزيرة العربية، حيث ان هذه المنطقة بملاحظة تمدنها شبيهة حقا بوضعها الجغرافى، فهى شبة جزيرة اى تشرف علىالماء من ثلاثة اطراف، ولكنها مع ذلك تشكو من العطش والجفاف، وهى كذلك تجاورثلاث مدنيات و حضارات تاريخية، فمن الشمال تجاور حضارة اليونان والروم الشرقية، ومنالشرق مع ايران، و منالجنوب الشرقى مع حضارة الهند ومنالشمالالشرقى مع الحضارة الآرامية (بنى اسرائيل) والاديان اليهودية والنصرانية والزرادشتية، والحضارات الآرية والسامية والاغريقية فكل الحضارات والمدنيات الموجوده فى زمن ظهورالنبى محمدكانت تحيط بالجزيرة العربية، ولكن مثلما كانت الجزيرة من الناحية الجغرافية تقع على عدة بحار ولكن لايصلها منها بخارالماء، فمنالناحية الحضارية أيضا لم يصلها أثرمن آثارهذه الحضارات المحيطة بها.

فعلى هذا الاساس يظهر النبى فى ظروف كهذه بحيث يعتبر فى نظر علماء الاجتماع اكبر عامل فى تغيير و تحويل التاريخ والمجتمع و هذا العامل متوفرفى شخصية الرسول.. وفى نظر المؤرخ، يعتبر ظهورالنبى اعظم حدث تأريخى فى القرن السابع حدث فى شبه الجزيرة، فأذاب فيه كل ماحوله من الحضارات و اوجد حضارة كبيرة ومجتمعا عظيما.

و هنا عندما يلاحظ المؤرخ لهذه الحقبة التاريخية او هذه المنطقة التى كانت تعيش جدبا ثقافيا و فراغا حضاريا وكان اهلها يعيشون فى احط المستويات الفكرية والاجتماعية، و عندما يتامل فى ذلك التحول الحضارى والتاريخى

الكبيرالذى حدث بمجيء الاسلام فينسبه الى شخصية النبى محمد، لان شخصية نبى الاسلام كان لها وضع فريد خاص.

انّ هناك عوامل خمسة تصنع شخصية الانسان: فالعامل الاول الذى يصوغ هيكل وابعاد روح الانسان هى (الام). يقول اليسوعيون: اعطوناطفلكم حتى يبلغ السابعة من عمره، و بعدئذ اينما ذهب يبقى يسوعيا ـ فالام تربى روح الطفل بكل رقة ولطف و بكل عاطفة وتلقنه الدروس الاولى بطرق خاصة بها حين يكون رضيعا. والعامل الثانى ياتى دورالاب، حيث يصوغ الابعاد الاخرى فى شخصية الطفل. والعامل الثالث الذى يصوغ الجوانب الظاهرية والسلوك البارز للانسان، هوالمدرسة، والعامل الرابع هوالبيئة الاجتماعية فكلما كانت هذه البيئة واسعة وكبيرةً كان تاثيرها علىالانسان اكثر والانسان الذى يعيش فىالريف يكون أثر البيئة فيه أقلّ من الاثر الذى تتركه فيه البيئة فى مدينة كبيرة و واسعة. و اما العامل الخامس فى تربيةالانسان فهو الثقافة العامة سواء الثقافة القومية اوالعالمية.

فهذه ابعاد خمسة تشكل فى مجموعها قالبا واحدا تصب فيه روح الانسان و تبرزها للوجود.

التربية هى عبارة عن صياغة روحالانسان بشكل خاص و وفق اهداف معينة، لان الانسان لو اهمل وترك لنمى بطريقة قدلاتنفع للحياة اولاهدافنا، ولذلك نضع له قوالب معينة حتى ينموفى ضمنها و يتربى كمانريد له وكما يتطلب منه الزمان والوضع الاجتماعى.

اما فى حياة النبى محمد، الذى كان له اعظم الاثرـ باعتبار عاملالشخصية فى ذلك التحول التاريخى ـ اما بالنسبة الى النبى الاكرم فانه لم يكن لاىّ عامل من هذه العوامل الخمسة المذكورة دخل و تاثير فى روحه.

لقد كان مقصوداً ان لايفرض عليه اى قالب منالقوالب الفكرية والاجتماعية اوشكل من اشكال التربية المصطنعة ـ و بتلكالصورة المعهودة فى زمانه و محيطه الذى عاش فيه لان هذا الرجل جاء ليحطم تلك القوالب المعهودة، واذا تربى هوضمن واحدمنها كيف يمكن ان يحقق رسالته.

فمثلا كان يمكن ان يصبح حكيما كبيرا ولكن فىالقوالب اليونانية اويصبح

فيلسوفا عظيما ولكن فى قوالب موجودة عندالفرس مثلاً، اوعالما للرياضيات اوشاعرا بارزا كمايعبده اهل زمانه و شعراء عصره. ولكنه بعث لينمو فى محيط فارغ من الثقافة والمدنية (فى الاميين) حتى لاتتاثر شخصيته باى قالب روحى و فكرى من القوالب الخمسة.

لهذا فهو منذ ان يفتح عينه يفقد اباه، وحتى لوكانت عنده ام، فاليدالتى تريد حفظه بعيدا عن كل قالب يقولبه، تاخذه ـ مع وجود الام الى الصحراء البادية. فقد كانت العادة جارية عندالعرب فى ذلك الزمن ان يرسلوا اولادهم الى البادية لقضاء فترة الرضاعةولحولين كاملين، وبعدئذ كانوا يعيدونهم الى المدينة ليتربوا فى احضان الامهات.

ولكن محمدا ـ خلافاً للسنة المتّبعة ـ بعد ان انهى فترة الرضاعة وحمل الى مكة عاد مرة ثانية الى البادية حتى الخامسة من عمره و بعد مدة اى فى السنة السادسة ـ توفيت امه . اذاً لم يَرَامّه وأباه. و هذه التدابير الدقيقة المليئة بالحكمة رافقت طفولة انسان يجب عليه ان يحطم كل القوالب اليونانية والشرقية والغربية واليهودية والمسيحية والزرادشتية، ويصنع قالبا جديدا و لذلك نراه وقد عاش مصونا من كل القوالب الموجودة و بقى بعيدا عن التاثر بها (لتصوغ شخصيته يدالغيب نقيا طاهرا كما قال: «ادبنى ربى فاحسن تاديبى».

فنلاحظ انه لم يعش فى مكة ولم يخالط اهلها كثيرا حتى يتلوث بالمحيط الاجتماعى، بل حتى بعد اجتياز مرحلةالصبا ودخول مرحلة الشباب ـ و بطريقة من الطرق و هى التزام حرفةالرعى تجذبه تلك اليد المدبرة الى البادية مرة اخرى ليعيش بعيدا فى شبابه عن البلد والبيئة الاجتماعية، فلايتاثر بقوالبها المعهودة ولاتؤثر شوائبها على روحهالنقية. وفى سبيل ان لاتؤثر فيه روح العصرالذى عاش فيه فانه يولد فى مجتمع لايملك ثقافة عامة و مدنية و هوايضا امّى ـ اى لايعهد القراءة والكتابة ـ حتى لايتاثربقالب الدراسة والمدرسة. نحن نلاحظ ان اكبر شىء ناله هذه الشخصية الذى يريد ان يستقبل اعظم رسالة و مهمة هوحرمانه من كل الافكار و الثقافات والقوالب الفكرية والاجتماعية السائدة فى زمانه، حتى يكون الرجل المعدلاطفاء بيوت النارالمعبودة من دون الله و اغلاق الاكاديميات الرومانية و فتح (المسجد) فى مقابلها، والرجل الذى عليه ان يحطم كل القوالب

العنصرية والقومية والاقليمية الضيقة.. يكون بعيدا عن كل قالب من هذه القوالب البالية. لذلك نجد ان اباه سلب منه بموته وهو جنين فى بطن امه حتى لايترك على شخصيته اى اثر او بعدا معيناً، كما أنه يبقى بعيدا عن حضن امه حتى لاتترك عواطف الامومة و حنانها و دلالها على روح يجب ان تكون مشبعة من الصلابة والقوة، بدل الرقة والنعومة والدلال، ثم يولد ويعيش فى شبه الجزيرة العربية وهى منطقة جافة أمّية حتى لاتعلق بهذه الروح الكبيرة اية شائبة من شوائب الثقافات والمدنيات والاديان السائدة.

لماذا؟

لان روحا عليها ان تتحمل اعظم مسؤولية وتحقق رسالة غيرعادية يلزم ان لاتتقولب باى قالب عادى ولاتتشكل باى شكل من الاشكال المتعارفة.

ولكنّ الحرمان هذا، ولاسيّما بالنسبة لانسان يقع على عاتقه أكبردور فى أكبر حَدَثٍ حَدَثَ فى التاريخ، لايعتبر حرماناً. انّه أكبرنيل يناله هو والبشرية جمعاء.

حسن يوسف الكويتي
حسن يوسف الكويتي

سروش
دار سروش للطباعة والنشر ـ الجمهورية الاسلامية الايرانية
الثمن: ٢٥ ريالاً ايرانياً